عبد الله حسن الفارسي

مملكة الجبين:
ما بين الجَفْن والأهداب

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON * CAMBRIDGE * NEW YORK * SHARJAH

الفصل الأول

انتصفت الشمس في السماء على قلعة كبيرة وعملاقة وحدائقها واسعة جداً ومليئة بالشجيرات الجميلة والأزهار الزاهية. ووصل موكب قادم من مملكة الجبين تبعد عن هذه المملكة – مملكة الرخام – أكثر من أسبوعين واستقر في فناء القلعة الواسعة. نزل من الموكب رجل أربعيني طويل وعضلاته بارزة يرتدي بزة زرقاء وهي تخصُّ حراس العائلة الملكية فقط. دخل الرجل القاعة برفقة جنوده الذين أتوا مع الموكب ومن بينهم ثلاثة أشخاص معتقلين وتبعه بعض حراس القلعة ليلتقي بملك القلعة الكبيرة، وقد كانت واسعة ومفروشة بسجاد أبيضَ مزخرف برسومات دائرية، ونوافذها كبيرة وتطل على الحدائق مباشرة، وفي السقف قبة زجاجية لتسمح لضوء الشمس بالنفاذ إلى القاعة. ظل الرجل والجنود والحراس يمشون حتى وصلوا إلى عرش الملك الكبير والمرصَّع بالجواهر.

حنى الرجل رأسه وقال للملك: [سعيدٌ بأن أراك بخير يا جلالة الملك (إيثار)]

نظر الملك إلى الرجال المعتقلين وسأل: [أنت المستشار (سعدون)، أليس كذلك؟ مستشار ملك مملكة الجبين]

- [نعم يا جلالة الملك، أنا هو]

كان الملك كبيراً في السن وقد حَفَرت التجاعيد في وجهه ومن ينظر إليه يعتقد أنه مريض أو أن أيامه معدودة. كان يرتدي ملابس فضفاضة وتغطي ظهره عباءة حمراء فاخرة ورباطها حول عنقه.

دخل ابن الملك وقد كان أميراً وسيماً تجاوز الثلاثين وأسمه (مرمر)، ومن ثم قال مبتسماً: [أرى المستشار سعدون هنا... أين هو الأمير (ضوء)؟ ألم يأتِ؟]

تمعَّن الأمير في المستشار وجنوده وانتبه لوجود ثلاثة رجال مقيدين يعرفهم حق المعرفة.

سأل الأمير مرمر وقد اجتاحته ريبة: [ما الأمر أيها المستشار؟ لماذا تقيِّدُ حراس أخي ضوء؟]

قال الملك حين اقترب الأمير منه: [وأنا متعجب أيضاً. دخلتَ عليَّ برجالي وهم مقيدين. كم أنت جريء يا حضرة المستشار!]

عبس المستشار وقال وهو محافظ على آدابه: [أتمنى من جلالتكم أن تسمحوا لي وتسمعوا سبب اعتقالي لهؤلاء الحراس من أفواههم]

تنحى المستشار قليلاً وأشار لأحد المقيدين أن يتحدث.

قال الأول مرتبكاً: [الرحمة يا مولاي...]

أمره الملك: [قل ما في جوفك!]

حدَّق الملك والأمير بالرجل المتحدث بتعابير متلهفة في انتظار الرجل ليكمل حديثه.

قال الرجل بعد أن أخذ نفساً عميقاً وزفر في توتر: [الأمير ضوء قَتَل ملك مملكة الجبين وزوجته الملكة غدراً]

وقف الملك من على كرسيه حين قال متعجباً وغاضباً: [ماذا؟!]

قال الأمير بعيون جاحظة غير مصدق: [هذا غير معقول!]

أغمض الرجل عينيه خوفاً من سخط الملك وأكمل: [إنها الحقيقة يا مولاي. الأمير ضوء قتل الملك والملكة وبث الفساد والفوضى في مملكة الجبين ومات الكثير من الناس جراء ذلك]

قال الرجل الثاني ليقف مع الرجل الأول: [الحق الحق يا مولاي وأنا شاهد على ذلك. الأمير ضوء أحدث هزة كبيرة في مملكة الجبين وسيظل الناس يذكرونها لأجيال عديدة]

سأل الملك إيثار والغضب قد ظهر عليه: [وكيف حدث كل هذا؟!]

قال الأمير مرمر: [يجب أن يكون لذلك سببٌ]

قال المستشار سعدون: [السبب واضح جداً يا سمو الأمير؛ كان يريد العرش وظهرت حقيقة نواياه الخبيثة بعد خطوبته من الأميرة (شعاع)]

صار الملك والأمير يسألان وحراس الأمير ضوء يجيبون على التساؤلات وقد اعتراهم الخوف وهم يعرفون أن الإعدام سيكون مصيرهم دون شك. وكان سعدون يقف معهم ويساندهم ويوضح لهما الأمور بأدق تفاصيلها مؤكداً أن الحراس لا دخل لهم بما جرى، فهم كانوا يتبعون الأوامر فقط لا أكثر ولا أقل ولم يكن لديهم حيلة أو شجاعة لاعتراض الأمير ضوء.

سأل الأمير والحزن تسلل إلى صدره: [وأين هو أخي الآن؟]

أجابه الرجل الأول: [لقد قُتِل على يد أحد المواطنين هناك بعد أن ثار الشعب عليه]

قال الملك: [ضوء ليس ولدي، فقد كان ابن زوجتي الراحلة فقط ولا ينتمي للسلالة الملكية، وما فعله في مملكة الجبين سيظل وصمة عار علينا]

قال الأمير ليدافع عن ضوء: [ولكن يا أبي...]

الملك: [انتهى الكلام وهيا انصرفوا!]

حنى الجميع رؤوسهم وهمُّوا بالخروج فقال الملك غاضباً: [وأنت أيها المستشار! هيا ارجع إلى مملكتكم ولا تعد إلى هنا ثانية!]

حنى سعدون رأسه وقال: [كما تأمر يا جلالة الملك]

وغادر سعدون القلعة مع موكبه بعد أن أرضاه الأمير وأكَّد له أن الملك صار عجوزاً ويغضب بسرعة، وطلب منه أن يسامحه وهذا ما فعله سعدون لأن الأمير يريد السلام بين المملكتين فحسب.

*****

في تلك الأثناء، وفي إحدى قرى مملكة الجبين الصغيرة والتي هي (قرية السلسبيل)، تجمع القرويون حول شاب سمين وعريض وشابَّة شقراء وجميلة يحرسهما بعض حراس القلعة. بدى على الجميع السعادة والوئام وهم يتحدثون مع هذين الشابين بكل حماسة.

قال الشاب السمين ذو الشعر الأسود القصير واللحية الكثة والمحسنة: [أشكركم جميعاً على كل شيء فعلتموه من أجلي]

قال أحد القرويين وكان يرتدي ملابس تخص من يعمل في مجزرة: [لم نفعل شيئاً يا (عين).. لقد كوَّنت نفسك بنفسك]

كان عين يرتدي ملابس بيضاء فضفاضة وفخمة جداً عكس باقي القرويين الذين كانوا فقراء وعاديين جداً.

قال رجل آخر وهو يبتسم: [كانت أمك ستفخر بك كثيراً]

قال عين وهو يبادلهما الابتسام: [أشكركما يا (عَظْمة) ويا (رغيف)]

كان عظمة جزاراً ورغيف خبازاً يعملان في هذه القرية منذ زمن بعيد.

قالت الشابة الشقراء وفستانها الأحمر ذو الأربطة الزهرية يتراقص مع نسمات الهواء: [لن أنسى فضلكم ما حييت، وسامحوني لأني أزعجتكم كثيراً وكنت سبباً في خراب القرية]

قالت زوجة رغيف: [لم تكوني كذلك أبداً يا سمو الأميرة. كنتِ كالزهرة المتفتحة تنشر عبقها الزكي في كل مكان]

ابتسمت الأميرة وقالت: [شكراً لكِ يا سيدة (قمحة) وأتمنى أن تناديني بـ(دمعة) كما السابق. سآمر المسؤولين في القلعة بإعادة بناء هذه القرية وباقي القرى أيضاً. لقد هُدِّمتْ بيوت ودكاكين كثيرة بسبب هيجان حراس القلعة]

قالت قمحة منشرحة الصدر: [هذا عظيم!]

أخذ القرويون يتبادلون أطراف الحديث بسعادة وفرح من عين ودمعة حتى دخلت من بين الحضور شابة أخرى جميلة بشعر بني مسرح جيداً وتحمل بين ذراعيها طفلة قد أكملت ربيعها الثاني منذ عدة شهور.

قالت مبتسمة: [آسفة على تأخري.، فقد ركضت (أهداب) بعيداً. هل فاتني شيء؟]

قال عين: [لم يفتكِ أي شيء يا أختي العزيزة (رِقَّة)]

فرحت أهداب حين رأت عيناً ومدَّت ذراعيها نحوه وهي تقول: "بابا" ليحملها بين ذراعيه الثخينتين وكان شعرها أحمر قرمزي ولها عيون مغايرة، فعينها اليمنى زرقاء واليسرى خضراء.

قال عين وهو يلتقط أهداب من بين ذراعي رِقَّة: [لقد أتعبتِ عمتكِ كثيراً يا ابنتي]

قال الجزار عظمة: [يبدو أنك سعيد في القلعة يا عين]

- [حمداً لله، أشعر بالسكينة والاستقرار]

قالت قمحة: [اهتمي بعين وبأهداب يا دمعة ولا تنسي نفسكِ فأنتِ حبلى وستحتاجين لأن تعتني بغذائك كثيراً]

قالت دمعة: [نعم، سأفعل ذلك بكل تأكيد]

قال أحد القرويين لعين: [ستصبح أباً عما قريب يا عين وهذا أمر رائع جداً]

قالت قروية أخرى: [أتمنى أن تزورينا دائماً يا سمو الأميرة فسنشتاق لكِ كثيراً]

قالت دمعة: [بالطبع سأزوركم دائماً]

جهَّز الحراس العربة الملكية التي يجرها حصانان ملكيان وركبها عين ودمعة وابنتهما بالتبني – أهداب – وغادروا القرية إلى القلعة وهما يودعان أصدقاءهما والقرويين.

*****

عند غروب الشمس، وفي (قرية الأنوار) التي تبعد عن المدينة والقلعة مئات الكيلومترات، كان هناك رجل سمين ذو شعر قرمزي ولحية كثة ينتظر في بيته الخشبي الكبير مع زوجته وأمه وابنه الصغير. يتحرك في غرفة المعيشة ذهاباً وإياباً في قلق وتوتر وصبر نافد.

قالت زوجته: [اِهدأ يا (قرمز). سيأتي أخي عمَّا قريب بالأخبار السارَّة]

فتح قرمز الباب وأطل برأسه المستدير إلى الخارج وهو ينقل ناظريه في كل الاتجاهات ومن ثم أغلق الباب.

قال وهو يقترب من أمه: [لقد تأخر كثيراً!]

قالت الأم: [أنا لستُ مرتاحة يا بُنَي]

- [ولا حتى أنا يا أمي]

ركض الابن الصغير والذي كان يشبه أباه كثيراً في الشكل والشعر إلى جدته ليجلس في حجرها.

قالت الزوجة: [لا تزعج جدتك (قشّة) يا (جَفْن)]

قالت قشّة -أم قرمز-: [دعيه يا (رونقة)]

- [ولكن...]

ثم طرق أحد ما الباب ففتحه قرمز مباشرة فوجد من كان ينتظره، وهو رجل طويل ونحيل ذو شعر أسود وملابس تخصُّ حرَّاس القلعة ويحمل في يده كيساً قماشياً كبيراً.

سأله قرمز وقد هزمه القلق: [هل عثرتم عليهم يا (خشر)؟]

تنهَّد خشر ودخل إلى البيت والحزن بادٍ عليه.

سألت رونقة: [ما الأمر يا أخي...؟ تكلم!]

فتح خشر الكيس القماشي أمامهم وسأل: [هل تبدو هذه الأشياء مألوفة لكم؟]

نظرت قشّة إلى الأشياء وقالت وهي تلتقط قطعة قماش بيضاء وقالت: [إنها تخص ابنتي (لبيبة)! أنا متأكدة فهذه القطعة جزء من فستانها]

تفحَّص قرمز الأغراض والتقط قطعة دائرية وذهبية اللون وعليها نقوش وزخارف.

قال قرمز: [وهذه الساعة تخص صهري (غارب)]

وقف قرب خشر وسأله: [من أين عثرت على هذه الأغراض وأين هي أختي وصهري والتوءمتين (أنين) و(رنين)؟]

أخذ خشر نفساً عميقاً وقد ضاعت الكلمات من فمه ولكنه استجمع قواه وقال بعد أن زفر: [بكل أسف أقول لكم أنهم... أنهم...]

مسكه قرمز من كتفيه وصار يهزه بعصبية: [إنهم ماذا؟! تكلم!]

قال خشر حين أغمض عينيه بأسى: [يؤسفني القول إنهم قتلوا]

- [مـ.. ماذا؟! هذا مستحيل!]

- [لا نعرف بالضبط ما حدث؛ فقد عثرنا على جثث كثيرة ويبدو أنهم تعرضوا لهجوم من قطّاع الطرق والوحوش الكاسرة، وكانت جثة أختك وصهرك من بينهم]

لم يستوعبوا في بادئ الأمر حتى شرح لهم خشر أكثر، ثم أخذ قرمز يصفع نفسه ويجهش بالبكاء وبدأ بتمزيق ثيابه حتى كشف عن نصف جسده، وأمه صارت تضرب نفسها وتندب حظ ابنتها المقتولة وزوجها، ورونقة بكت معهم غير مصدِّقة لما سمعت من أخيها خشر، ونزل الحزن عليهم كثيراً بسكاكينه وصار يقطع قلوبهم بلا رحمة.

اتجهت رونقة إلى أخيها وسألت بعيون دامعة: [ماذا عن الطفلتين؟]

- [كل الجثث تعفنت وفي حالة يصعب على المرء معرفتهم. سنأتي بالجثث بعد قليل ولكنني لا أنصح بأن يراها أحد]

أخذت رونقة تجهش بالبكاء وهي تحتضن قرمز وقالت: [إنها أكبر مصيبة حلَّت علينا]

قال خشر وقد سيطر عليه الحزن: [ولكننا لم نجد جثث لأطفال. كلهم بالغون. رغم ذلك فلا أعتقد أن الطفلتين نجتا. ربما أكلتهما الوحوش الكاسرة]

لم ينطق أحد بكلمة فكلهم يبكون بحسرة وألم على فراقهم، ومضت عليهم الليلة ثقيلة جداً ولم يستطع أحد منهم النوم من الحزن.